وزارة التعليـــم العـالي

جامعـة الملك سعـــود

قسـم الحديث والتفسير

تفسير سورة ص

من الآية ١٠ إلى الآية ٢٠

إعداد: حصة بنت صالح المحمود.

مقدم لـ:د/وفاء بنت عبدالله الزعاقي.

١٤٣٥-١٤٣٦هـ

تفسير سورة النساء من (٤٧_٥٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾

[أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما] :

(أم) هنا منقطعة بمعنى (بل)، والاستفهام المقدر بعد (أم) المنقطعة تهكمي، وقيل للإنكار(١).

والمعنى : أي أم لهؤلاء المشركين الذين هم في عزة وشقاق ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ؟! ، فإنه لا يعازني ويشاقني من كان في ملكي وسلطاني (٢).

[فليرتقوا في الأسباب] : جواب شرط محذوف(٣).

والأسباب جمع سبب، و السبب في اللغة: كل ما يُصَل به إلى المَطلوب من حبلٍ أو غيره(٤).

---

(١) ينظر: تفسير ابن جزي ٢٠٣/٢، التحرير والتنوير لابن عاشور، الفتوحات الإلهية للجمل (٦/ ٣٧٢)

(٢) ينظر: تفسير الطبري، التحرير والتنوير لابن عاشور

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي، تفسير الآلوسي ١٦٢/١٢، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٩٩)، تفسير الشربيني، وغيرهم من المفسرين.

(٤) ينظر: تفسير الطبري، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٣٦)

واختلف المفسرون في معنى الأسباب التي ذكرها الله في هذا الموضع على أقوال، منها [١]:

١) أنها السموات نفسها. ٢) أنها طرق السموات وأبوابها التي تنزل الملائكة منها.

٣) أنها الجبال والسلالم، وغيرها من أسباب القوة.

والمعنى: أي: إن كان لهم ذلك، فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء وإلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ويدبروا أمر العالم بما يشتهون، أو فليصعدوا ، وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على الرسول ﷺ ، وهو غاية التهكم بهم[٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

[**جندٌ**] : في إعرابها قولان:

١/ أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره : (هم) [٣].

٢/ أنها مبتدأ [٤]، وخبره قيل: (هنالك) ، وقيل : (مهزوم) –كما سيأتي بيانه–.

[**ما**] : قيل في نوعها قولان :

١/ أنها للصلة[٥].

٢/ أنها زائدة مؤكدة لما قبلها [٦]، والغرض منها: التقليل والتحقير، كقولك أكلت شيئا ما، وقيل: التعظيم على سبيل على الهُزءِ بهم[٧]، يقول البيضاوي: (وهو لا يُلائم ما بعده !).

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٧ / ٣٢٧)، الوسيط للواحدي (٣/ ٥٤٠)، تفسير ابن جزي ٢٠٣/٢، تفسير ابن كثير، تفسير أبي السعود، بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ١٥٩)، النكت والعيون للماوردي (٥/ ٧٩)، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٩٩)، تفسير الألوسي ١٦٢/١٢، تفسير القاسمي، وغيرهم من المفسرين.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، تفسير البيضاوي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٣٦)، تفسير النسفي، تفسير أبي السعود، تفسير الآلوسي ١٦٢/١٢، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٩٩)، تفسير الشربيني، وغيرهم من المفسرين.

(٣) ينظر: تفسير الطبري، البحر المحيط (٧/ ٣٧٠)، الوسيط (٣/ ٥٤١)، الألوسي ١٦٢/١٢، تفسير الشربيني، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٣٧)، تفسير القنوجي (١٧/١١)، فتح القدير، وغيرهم.

(٤) ينظر: تفسير النسفى (٤/ ٣٠)، تفسير الألوسي ١٦٢/١٢

(٥) ينظر: تفسير الطبري، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٣٧)، تفسير النسفى (٤/ ٣٠)

(٦) ينظر: المحرر الوجيز (٧ / ٣٢٨)، الوسيط للواحدي (٣/ ٥٤١)، بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ١٦٠)، وغيرهم.

(٧) ينظر: الكشاف (٥ / ٢٤٦)، تفسير البيضاوي (٣٨)، البحر المحيط (٧/ ٣٧٠)، تفسير أبي السعود، تفسير ابن جزي ٢٠٣/٢، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٩٩)، الفتوحات الإلهية للجمل (٦/ ٣٧٢)، وغيرهم.

[**هنالك**] : ظرف مكان يشار به للبعيد [١]، وقيل في إعرابها قولان :

١/ أنه خبر للمبتدأ ، عند بعض من أعرب (جند) بأنها مبتدأ [٢].

٢/ أنه صفة لـ (الجند)[٣].

وقد اختلف في الإشارة بـــ (هُنَالِكَ) على أقوال[٤]:

الأول/ أشار إلى الارتقاء في الأسباب، أي: هؤلاء القوم إن راموا ذلك جندٌ مهزوم. الكشاف

الثاني/ الإشارة إلى حماية الأصنام وعضدها، أي: هؤلاء القوم جند مهزومٌ في هذه السبيل.

الثالث/ الإشارة إلى يوم بدر ومصارعهم ، وكان غيباً أعلم الله به على لسان رسوله ﷺ.

الرابع/ الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة.

وقد رجح ابن عطية –رحمه الله– الأول، وقال : (هذا قوي).

[**مهزوم**] : وأصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم[٥]، وقيل في إعرابها قولان :

١/ أنه خبر للمبتدأ ، عند بعض من أعرب (جند) بأنها مبتدأ [٦]، قال أبو السعود: (وفيه بعد لفصله عن الكلام الذي قبله).

٢/ أنه صفة لـ (الجند) [٧].

[**من الأحزاب**] : (من) للتبعيض[٨]، وجملة الجار والمجرور (من الأحزاب) صفة للجند أيضاً، أي: هم جندٌ من الأحزاب مهزومٌ هنالك[٩]، والأحزاب : سائر من تقدّمهم من الكفار الذين تحزبوا على الأنبياء[١٠]، وأنهم من جملة الأحزاب الذين تعصبوا في الباطل وكذبوا الرسل، يقول ابن كثير (أي: هؤلاء

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٣٧٠)

(٢) ينظر: تفسير النسفى (٤/ ٣٠)، تفسير الألوسي ١٦٢/١٢

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود، تفسير ابن جزي ٢٠٣/٢، حاشية زادة ١٨٣/٧.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز (٧/ ٣٢٨)، البحر المحيط (٣٧٠/٧)، الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٣٧)، وغيرهم.

(٥) ينظر: تفسير الألوسي ١٦٣/١٢.

(٦) ينظر: تفسير النسفى (٤/ ٣٠)، تفسير الألوسي ١٦٢/١٢

(٧) ينظر: تفسير أبي السعود، تفسير ابن جزي ٢٠٣/٢، حاشية زادة ١٨٣/٧.

(٨) ينظر: تفسير الشوكاني.

(٩) ينظر: تفسير الطبري.

(١٠) ينظر: الوسيط (٣/ ٥٤١)

الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين). والكلام لتسليته ﷺ، وتبشيره بانهزامهم [١]، يقول الواحدي : "(ثم أخبر عن هزيمتهم ببدر، قال قتادة: (أخبر الله تعالى، وهو يومئذ بمكة، أنه سيهزم جند المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر) "[٢]،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

[**كذبت قبلهم قوم نوحٍ وعاد** ....]: يعني: من قبل أهل مكة، والآية هنا: استئناف مقرر لمضمون ما قبله، ببيان أحوال العتاة الطغاة مما فعلوا من التكذيب، وفُعل بهم من العقاب، وذكر منهم ستة أصناف.

[**وفرعون ذو الأوتاد**] : واختلفوا في السبب الذي من أجله قيل لفرعون ذو الأوتاد على أقوال[٣]:

١) لأنه كانت له ملاعب من أوتاد، يُلعب له عليها.

٢) لأنه كانت له أوتاد، يُعذب الناس عليها.

٣) أن المراد بالأوتاد البنيان العظيمة، وعليه يكون معنى ذو الأوتاد أي: ذو البنيان.

٤) ذو الجنود العظيمة، يعني أنهم كانوا يقوون أمره، ويشدِّدون ملكه، كما يقوي الوتد الشيء.

الترجيح: قال الطبري: "وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما للعب، كان يلعب له بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد"[٤].

[**أصحاب الأيكة**]: أي: الغيضة، وهو الشجر الملتف، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة[٥].

وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد ورد في بعض الآيات أن شعيباً أرسل إلى مدين، يقول قتادة: (بُعث شعيب إلى أمتين من الناس، إلى أصحاب الأيكة، وإلى مدين، وعذبتا بعذابين) [٦]، لكن الذي عليه أكثر المفسرين، أنهما واحد، وهو المروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما–[٧].

---

(١) الألوسي ١٦٢/١٢.

(٢) الوسيط (٣/ ٥٤١)

(٣) ينظر: تفسير الطبري، تفسير الماوردي (٥/ ٨١)، تفسير ابن الجوزي (٧ / ١٠٤) ، تفسير الآلوسي١٦٤/١٢، وغيرهم.

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٥٨/٢١)

(٥) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٣٩٠)

(٦) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ٨١)

(٧) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٣٩٠)، وهو قول ابن جرير وابن كثير، وابن سعدي وغيرهم.

القراءات في الآية: قُرئت (الأيكة) بقراءتين سبعيتين[١]:

١/ قرأها ابن كثير و نافع و ابن عامر [لَيْكَةَ] بفتح اللام والتاء من غير همز.

٢/ قرأها الباقون بالهمز مع كسر التاء [الأيكةِ] بفتح اللام و كسر التاء.

[**أولئك**] : اسم الإشارة يعود إلى أقرب مذكور، وهم قوم نوح ومن عطف عليهم ؛ وفيه تفخيم لشأنهم، وإعلاء لهم على من تحزب على رسول الله ﷺ ، أي هؤلاء العظماء لما كذبوا عوقبوا ، وكذلك أنتم[٢] .

[**الأحزاب**]: يحتمل وجهين[٣]:

أحدهما: أحزاب على الأنبياء بالعداوة.

الثاني: أحزاب الشياطين بالموالاة.

وجملة: (أولئك الأحزاب) معترضة بين جملة (كذبت قبلهم) وجملة: (إن كل إلا كذب الرسل) [٤]

يقول ابن كثير: (أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك)، يقول الشنقيطي: (في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ ، بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام ، وذلك يسليه ويخفف عليه)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

استئناف جيء به، تقريرا لتكذيبهم على أبلغ وجه، وتمهيدا لما يعقبه.

[**إن**] : إن نافية، بمعنى (ما) ، ولا عمل لها لانتقاض النفي بـ (إلا) .

[**كلّ**] : مبتدأ ، أي: كل هؤلاء الأمم .

[**إلا**] : حرف استثناء ملغي مبني على السكون لا محل له، لأن الاستثناء هنا مفرغ[٥].

[**كذب الرسل**] : الجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ.

[**فحق عقاب**] : أي: فوجب على كلّ منهم ووقع عقاب الله بسبب تكذيبهم[٦].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٧ / ٣٢٨)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٣٩)، تفسير البيضاوي (٣٨).

(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٧١)

(٣) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ٨١)

(٤) ينظر: فتح القدير

(٥) لأن تقدير الكلام: (كل كذب الرسل) نحو قولنا: (ما جاء إلا محمد) فهي بمعنى : (جاء محمد).

(٦) ينظر: الكشاف (٥ / ٢٤٧)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٣٩)، حاشية زادة ١٨٦/٧، وغيرهم.

يقول ابن كثير: (فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر).

يقول ابن سعدي عن -الكفار الذين كذبوا بدعوة النبي ﷺ -: "وهؤلاء، ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك".

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾

وهو شروع في بيان عقاب كفار مكة، إثر بيان عقاب أضرابهم، فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه، والنظر بمعنى الانتظار وعبر به مجازا بجعل محقق الوقوع كأنه أمر منتظر لهم، والإشارة بهؤلاء للتحقير.

[**وما ينظر**]: أي: ما ينتظر ، والمعنى: ماذا ينتظرون لوقوع العذاب بهم! .

[**هؤلاء**]: أي: كفار قريش، والإشارة بـ (هؤلاء) للتحقير، وقيل: يجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب.

[**إلا صيحة واحدة**]: قيل: أنها صيحة القيامة والنفخ في الصور، وليس المراد أنها نفسها عقاب لهم لعمومها للبر والفاجر من جميع الأمم، بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أعد لهم من العذاب إلا هي لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة، وقيل: أنها النفخة الثانية[١]، وقال بعضهم: بل هي النفخة الأولى[٢]، وتُعقِّب بأنه مما لا وجه له أصلاً، لأنه لا يشاهدها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها، وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها، ولا العذاب المطلق مُؤخرا إليها، بل يحل بهم من حين موتهم[٣].

وقيل: أن المراد بها ما نالهم من قتل وأسر وغلبة في الدنيا[٤]، يقول أبو حيان: (وعلى هذين القولين هم بمدرج عقوبة، وتحت أمر خطر، ما ينتظرون فيه إلا الهلكة)، قال الآلوسي مرجحاً القول الأول: (ولا يخفى أن المنساق إلى الذهن هو الاحتمال الأول وهو المأثور عن السلف).

[**فواق**]: ما بين حَلبتي الناقة من الوقت؛ لأنها تُحلَب، ثم تُترَك سُويعة يرضَعها الفَصيل لِتَدِرَّ، ثم تحلب، يقال: ما أقام عنده إلا فُواقاً[٥].

---

(١) ينظر: الوسيط للواحدي، تفسير ابن كثير، تفسير أبو السعود، تفسير الشوكاني، يقول ابن كثير: (هذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله ﷻ)

(٢) ينظر: تفسير الطبري، بحر العلوم للسمرقندي، تفسير النسفي،

(٣) ينظر: الألوسي، ١٦٤/١٢.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز (٧ / ٣٢٨-٣٢٩)، تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٧٣)، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/١٨).

(٥) ينظر: البحر المحيط، الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٤١). الوسيط (٣/ ٥٤٢)، الألوسي ١٦٥/١٢، وغيرهم.

القراءات في الآية: قُرئت (فواق) بقراءتين سبعيتين[١]:

١/ قرأها جمهور القراء [فَواق] بالفتح.

٢/ قرأها حمزة والكسائي [فُواق] بالضم.

واختُلِف في معناها إذا قرئت بفتح الفاء وضمها، فقال بعضهم: من فتحها أراد ما لها من راحة ولا إفاقة ، يذهب بها إلى إفاقة المريض، ومن ضمها جعلها من فُواق الناقة، وهو ما بين الحلبتين، يعني: ما لها من انتظار. وقال بعضهم: الفُواق والفَواق بمعنى واحد، وهو ما بين الحلبتين[٢].

يقول الطبري: (والصواب من القول في ذلك أنهما لغتان، وذلك أنا لم نجد أحدا من المتقدمين على اختلافهم في قراءته يفرقون بين معنى الضم فيه والفتح، ولو كان مختلف المعنى باختلاف الفتح فيه والضم، لقد كانوا فرقوا بين ذلك في المعنى).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

[**وقالوا ربنا عجّل لنا**]:أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم ومعاندتهم الحق[٣].

[**قطّنا**]: وأصل القط القطع، وأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه من غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالاً وأقوى حقيقة، وفيه لمن قال بهذا قولان:

أحدهما أنه يُطلق على كل كتاب يتوثق به.

الثاني: أنه مخص بالكتاب الذي فيه عطية وصلة[٤].

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أراد هؤلاء المشركون بمسألتهم تعجيل (القط) لهم على أقوال:

١/ عجل لنا حظنا من الجنة التي وعدتنا .

٢/ عجل لنا حظنا من العذاب التي وعدتنا استهزاء منهم بذلك.

٣/ عجل لنا نصيبنا من الرزق.

---

(١) ينظر: الكشاف (٥ / ٢٤٨)، الوسيط (٣/ ٥٤٢)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٠)، وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ١٦٠)

(٣) ينظر: تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١)

(٤) ينظر: تفسير الطبري، الوسيط (٣/ ٥٤٢ – ٥٤٣)، تفسير أبي حيان، تفسير أبي السعود، تفسير الماوردي، وغيرهم.

٤/ عجل لنا في الدنيا كتابنا في الآخرة وهو قوله : (فأما من أوتي كتابه بيمينه ... وأما من أوتي كتابه بشماله) استهزاء منهم بذلك[١].

يقول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا، استهزاء بوعيد الله، وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن القط هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم).

[**قبل يوم الحساب**]: أي: قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد ﷺ، وتسميتهم له بذلك من باب التهكم والاستهزاء ؛ لأنهم لا يؤمنون بالحساب[٢].

ثم أتبع ذلك قوله لنبيه:(اصبر على ما يقولون)، فكان معلوما بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي ﷺ لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء، وكان فيه لرسول الله ﷺ أذى، أمره الله بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم[٣].

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾

[**اصبر**]: يا محمد.

[**على ما يقولون**]: مما تكره قيلهم لك، فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا قبلك، ثم جاعلو العلو والرفعة والظفر لك على من كذبك وشاقك، سنتنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلك[٤].

[**واذكر عبدنا داود**]: لكي تتقوى على الصبر بذكر قوته على العبادة[٥].

يقول ابن سعدي: " لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)، ومن أعظم العابدين، نبي الله داود -عليه الصلاة والسلام- " [٦].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري، الوسيط (٣/ ٥٤٢ - ٥٤٣)، تفسير أبي حيان، تفسير أبي السعود، تفسير الماوردي، وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير أبي حيان، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ٢٤٣)، تفسير ابن عاشور.

(٣) ينظر: تفسير الطبري

(٤) ينظر: تفسير الطبري

(٥) ينظر: الوسيط (٣/ ٥٤٣)

(٦) تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١)

[**ذا الأيد**]: فيه قولان[١]:

أحدهما: ذا النعم التي أنعم الله بها عليه؛ لأنها جمع يد، حذفت منه الياء، واليد النعمة.

الثاني: ذا القوة العظيمة ، قيل: في دينه، وقيل: في بدنه[٢].

[**إنه أواب**]: أي: الرَّجاَّع إلى طاعة الله تعالى[٣]، وهو من قولهم: آب الرجل إلى أهله: إذا رجع[٤].

والجملة تعليل لكونه ذا الأيد، ودليلٌ على أن المرادَ به القَّوةُ الدينية، وهي القوة على العبادة[٥].

وفي الحديث الصحيح : أَنَّ رسول الله ﷺ قال: (أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً)[٦].

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾

[**إنا سخرنا الجبال معه**]: أي : جعلنا الجبال التي هي أقسى من قلوب قومك، وأعظم الأراضي صلابة وقوةً وعلواً ورفعةً، مُنقادة لداود عليه السلام، تسبح معه[٧]،كقوله: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) [الأنبياء: ٧٩].

[**يسبحن**] : في موضع نصب على الحال[٨]، واختار { يُسَبِّحْنَ } على (مسبحات) ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال[٩].

[**بالعشي والإشراق**]: أي طرفي النهار ، وقت صلاة العشاء، والإشراق وقت صلاة الضحى[١٠].

وروي عن ابن عباس –رضي الله عنها– أنه فسر التسبيح بالإشراق في هذه الآية بصلاة الضحى، استناداً على ما حدثته به أم هانئ بنت أبي طالب[١١]، روى عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، في قوله: (بالعشي والإشراق)

---

(١) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ٨٣)

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ، تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١) وغيرهما

(٣) ينظر: تفسير الطبري، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣٠)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٤)، وغيرهم.

(٤) ينظر: تفسير الطبري

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي، تفسير أبي السعود، تفسير الألوسي ١٦٦/١٢.

(٦) متفق عليه

(٧) ينظر: تفسير الشربيني

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٥).

(٩) ينظر: تفسير الرازي

(١٠) ينظر: الوسيط (٣/ ٥٤٢)، تفسير النسفي، تفسير القنوجي (٢٢/١١)، وغيرهم

(١١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٥،١٤٦)، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣٠،٣٣١)، الوسيط (٣/ ٥٤٣)، تفسير ابن كثير، تفسير القنوجي، تفسير النسفي، وغيرهم.

قال: كنت أمر بهذه الآية لا أدري ما هي!، حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء، فتوضأ ثم صلى الضحى، وقال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق)[١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ ﴾

[**والطير**] : بالنصب عطفاً على الجبال ، كأنه قال: وسخرنا الطير.

[**محشورة**] : نصب على الحال[٢]، أي: مجموعة إليه من كل ناحية، مسخّرة تسبح لله معه[٣]، قال ابن عباس: (كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير، فسبحت معه).

[**كل**]: يعني: كل الطير[٤]، وقيل يعني: الجبال والطير [٥]،وقيل يعني: كل من دواد عليه السلام والجبال والطير [٦].

[**له أواب**] : واختلف في عود هاء الكناية على قولين[٧]:

١. أنها عائدة على الله تعالى .

٢. أنها على عائدة على داود عليه السلام .

[أوّاب]: رجاع إلى طاعته وأمره، أي: كل له مطيع بالتسبيح معه [٨]، امتثالاً لقوله تعالى: (يا جبال أوبي معه والطير) فهذه منة الله عليه بالعبادة[٩].

يقول الشنقيطي: " والتحقيق : أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها ، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها، .كما قال : (وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ، وقال تعالى : (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِّ) ، وقال تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)".

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) ينظر: الكشاف (٥ / ٢٥٠).المحرر الوجيز (٧ / ٣٣١)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٨)، تفسير الألوسي ١٢/١٦٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري، تفسير النسفي، الوسيط (٣/ ٥٤٤)، الفتوحات الإلهية (٦/ ٣٧٧)

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢١/١٦٨)

(٥) ينظر: الوسيط (٣/ ٥٤٤)

(٦) ينظر: تفسير الألوسي ١٢/١٦٩.

(٧) ينظر: الكشاف (٥ / ٢٥٠،٢٥١)، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣١)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٩)

(٨) ينظر: تفسير ابن كثير، الكشاف (٥ / ٢٥٠)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٩)الوسيط (٣/ ٥٤٤)، وغيرهم

(٩) ينظر: الوسيط (٣/ ٥٤٤)، تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١)

ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

[**وشددنا ملكه**] : عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجُند ونعمة، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياء دون أشياء، فقال بعضهم : بالجنود والرجال، وقال آخرون: بهيبة جعلها الله تعالى له[١].

يقول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك تعالى أخبر أنه شدد ملك داود، ولم يحصر ذلك من تشديده على التشديد بالرجال والجنود دون الهيبة من الناس له، ولا على هيبة الناس له دون الجنود، وجائز أن يكون تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائز أن يكون كان بجميعها، ولا قول أولى في ذلك بالصحة من قول الله، إذ لم يحر ذلك على بعض معاني التشديد خبر يجب التسليم له).

ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال:

[**وآتيناه الحكمة**] : اختلف أهل التأويل في معنى [الحكمة] في هذا الموضع، على أقوال[٢]:

١/ قيل: عني بها النبوة.

٢/ قيل: عني بها السنة.

٣/ قيل: عني بها الفهم والعلم.

٤/ قيل: عني بها الإصابة في الأمور.

[**وفصل الخطاب**] : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك على أقوال[٣]:

١/ عني به أنه علم القضاء والعدل.

٢/ البيان الكافي في كل غرض مقصود.

٣/ هو الحكم بالبينة على المدعي، واليمين على المدعي عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل.

٤/ قوله: (أما بعد) وهو أول من تكلم بها، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له، فصل بينه وبين ذكر الله بقوله : (أما بعد)

---

(١) ينظر: تفسير الطبري، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣١)، الوسيط (٣/ ٥٤٤)، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٩)، بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ١٦٣)، تفسير أبي السعود، تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١)، تفسير الآلوسي ١٦٩/١٢، وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣١)، تفسير الماوردي (٥/ ٨٤)، تفسير ابن جزي ٢٠٤/٢، الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ١٤٩)، تفسير ابن سعدي (ص: ٧١١)، الفتوحات الإلهية (٦/ ٣٧٧)، وغيرهم.

(٣) ينظر: تفسير الطبري، المحرر الوجيز (٧ / ٣٣٢)، تفسير الماوردي (٥/ ٨٤)، الوسيط (٣/ ٥٤٤)، تفسير ابن كثير، تفسير النسفي، تفسير الشربيني، وغيرهم.

يقول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى داود صلوات الله عليه فصل الخطاب، والفصل: هو القطع، والخطاب هو المخاطبة).

قال ابن عطية: (والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصَّل المعنى وأوضحه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدركها، فكان كلامه عليه السلام فصلا، وقد قال الله تبارك و تعالى في صفة القرآن (إنه لقول فصل) [الطارق : ١٣] ، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تخصص عليه السلام به في قوله: (وأعطيت جوامع الكلم) فإنها في الخلال التي لم يؤتها أحد قبله)

من هدايات الآيات:

١/ في هذه الآيات تسلية وتهديد، تسليه للرسو ل ﷺ ، وتهديد للمكذبين أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم .

٢/ أنّ من كذّب رسولاً من الرسل فهو مكذّب باعتبار الأغلب لجميع الرسل، لقوله: (إن كلّ إلا كذب الرسل فحقّ عقاب).

٣/ الثناء على القويّ في العبادة لقوله: (عبدنا داود ذا الأيد)، أي: ذا القوة في العبادة، وعليه يتنزل قول الرسول ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) (١)، فإن المراد بالقوة هنا القوة في الإيمان؛ لأن القوي وصف يعود على المؤمن، فيكون المراد أي القوي في هذا الوصف، وليس قوي البدن؛ لأن قوة البدن قد تنفع و قد تضر، بخلاف قوة الإيمان، فإنها نافعة لا مضرة فيها .

٤/ إثبات العلل والأسباب؛ لأن الجملة في قوله: (إنه أواب) تعليلية، لكون داود عليه السلام موصوفاً بالقوة و العبودية؛ لأنه رجاع إلى الله ﷻ ، و كل من كان رجاعاً فسوف يكون قوياً في عبوديته .

٥/ بيان فضائل نبي الله داود عليه السلام، وما اختصه الله به من معجزات.

٦/ محمد ﷺ قد أعطي من كل ما أعطي داود فكان أوابا ، وهو القائل: (إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة)، وسخر له جبل حراء على صعوبة مسالكه فكان يتحنث فيه إلى أن نزل عليه الوحي وهو في غار ذلك الجبل ، وعرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهبا فأبى واختار العبودية ، وسخرت له من الطير الحمام فبنت وكرها على غار ثور مدة اختفائه به مع الصديق رضي الله عنه في مسيرهما في الهجرة . وشد الله ملك الإسلام له ، وكفاه عدوه من قرابته مثل أبي لهب وابنه عتبة ومن أعدائه مثل أبي جهل ، وآتاه الحكمة ، وآتاه فصل الخطاب ، قال: أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا بله ما أوتيه الكتاب المعجز بلغاء العرب عن معارضته ، قال تعالى في وصف القرآن: (إنه لقول فصل وما هو بالهزل)

٧/ إذا لم توقظك الموعظة و تبادر إلى التوبة و العمل الصالح فستفجعك زلزلة الصيحة .

هذا والله أعلم .. وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم !

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)